صورة جرير في شعر الفرزدق والأخطل الصورة الأخلاقيَّة أنموذجاً

الباحث اياد سلمان عبد الرزاق

الأستاذ الدكتور أحمد حياوي السعد

قسم اللغة العربية / كلية الآداب / جامعة البصرة

المستخلص

يتناول هذا البحث بالدرس والتحليل صورة جرير الأخلاقيَّة والسلوكيَّة في شعر زميليه الفرزدق والأخطل . إذْ كان تركيز الشاعرين على نزع الصفات الخلقيَّة عن جرير وإبداله عنها بصفات أُخرى تُعيِّر بها العرب من مثل : اللؤم والجبن وضعة النَّسب وهوان الحسب .. فضلاً عن صفات أُخرى موغلة في التحقير والتسفيه . كل ذلك في محاولة منهما لسلب كلِّ ما يملكه جرير من فضائل ؛ ولكسر حالته النفسيَّة ، وجعله هزوة للمتلقين .

كلمات مفتاحية: : صورة ، أخلاقيَّة ، سلوكيَّة ، اللئيم ، الذليل ، الجبان .

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٣/٠٨/٢٧ **تاريخ القبول:** ٢٠٢٣/٠٩/٢٠

The Image of Jarir in the Poetry of Farazdaq and Al-Akhtal: A Moral Image as an Example

Res.Iyad Salman Abdel Razzaq
Prof.Dr. Ahmed Hayawi Al-Saad
Department of Arabic Language / College of Arts / University of Basrah

Abstract

This research focuses on studying and analyzing the moral and behavioral image of Jarir in the poetry of his contemporaries Farazdaq and Al-Akhtal. The poets' concentration was on stripping Jarir of his inherent qualities and replacing them with traits that denigrate him among the Arabs, such as cowardice, low lineage, and ignoble descent, along with other traits steeped in belittlement and disparagement. All of this was an attempt by them to diminish all virtues attributed to Jarir, to undermine his psychological state, and to make him a subject of ridicule for their audience.

Keywords: Image, moral, behavioral, despicable, ignoble, coward.

Received:27/08/2023 **Accepted: 20/09/2023**

المقدمة

لقد أحبَّ العرب قيم الرجولة من شجاعة ومروءة وشهامة وكرم وعفة نفس وإغاثة ملهوف وتفاخروا بها ، لذا كان اللؤم والجبن والذل والتقتير والتخلُّف عن نجدة المستجير .. وغيرها من الرذائل مادة الهجاء الساخر التي هاجم بها الشعراء خصومهم وقبائلهم وأهليهم ، ولا سيما فيما يتعلق بالهزائم والحروب التي دارت بينهم . وهنا يجب أنْ نسجِّل ملاحظة مهمة جداً وهي أنَّنا سنجد صعوبة كبيرة في الفصل بين الصفات الرذيلة الفرديَّة المُستهدف بها المهجو ـ جرير ـ بسبب امتزاجها بالهجاء الجماعي ـ هجاء قبيلته وأهله ـ الذي نلاحظهُ في قصائدَ كثيرة . وقد تكونُ الصعوبةُ متأتية من أنَّ المعاني متقاربةٌ وإنْ كانت الألفاظُ متباينة .

١. جرير لئيماً :

كانت المطاعن وليدةَ البيئة الاجتماعيَّة الأمويَّة التي أوجدتْ معايير جديدة تُقوَّمُ بها مراتبُ الشرف والنبل لدى الجماعات القبلية ، وعلى رأس هذه المطاعن صفة ألحَّ عليها شعراء الهجاء إلحاحاً عجيباً حتى لم تكد تخلو منها أُهجية وقد افتتنوا في تصويرِها وذهبوا في توليد المعاني منها كلَّ مذهبٍ ، تلكَ هي صفةُ اللؤم ِواللُّؤمُ في اصطلاحِ أهل اللغة (ضد العتق والكرم) واللَّئيمُ هو الدنيءُ الأصل ، الشحيحُ النفس[١] . ولكنَّ هذا اللفظ اكتسب في البيئة الأمويَّة دلالة أوسع وأعم تجمع بين الشح والجشع وذلَّة النفس وضعة الأصلِ ، ودناءة الخلق والغدر والخبث ، وما شاكل ذلك من الخصال التي كانت موضع الذم والطَّعن في ذلك العصر[٢] . ومن ذلك قول الفرزدق في جرير[٣] :

يا اِبنَ المَراغَةِ أَنتَ أَلْأَمُ مَن مَشى　　وَأَذَلُّ مَن لِبِنانِهِ أَظفارُ

فجرير لئيم بل أَلْأَمَ مَنْ مَشى على الأرض ، ولا عجب فقد[٤] :

تسَربَلَ ثَوبَ اللُّؤمِ في بَطنِ أُمِّهِ　　ذِراعاهُ مِن أَشهادِهِ وَأَنامِلُهْ

و[٥]

بثدي اللُّوْم أُرْضِعَ لِلمَخَازِي　　وَأَوْرَثَكَ المَلَائِمَ حِين شَابَا

فهذه الخصلة الذميمة ليست طارئةً عليه أو حادثةً فيه ، بل هي موروثةٌ عن أهلهِ اللؤماءَ يُضاف إليها البخل حيث أنَّهُ لو أَشعلَ سراجاً ـ ونادراً ما يفعلُ ذلك ـ فأخذَ سراجهُ بالاتقادِ والإضاءة الجيدة ، فإنَّ بخلَهُ سوف يجرح مرؤتَهُ المريضة بما يُزيدهُ مساءةً وغمّاً . يقول[٦] :

وَلَوْ آنَّ أَلْأَمَ مَنْ مَشَى يُكْسَى　　ثَوْباً لرُحْتَ وَقَدْ كُسِيتَ إِزَارَا

كَلَمَتْ مُرُوءتُكَ الّتي تُعْنى بِهَا　　لَوْ جَادَ سَرْجُكَ وَاسْتُجَدَّ عِذارَا

و يقول فيه أيضاً[٧]:

لَقَدْ عَلِمَتْ عَيلانُ أَنَّ الذي رَسَتْ　　لَئيمٌ وَأَنَّ العَيْرَ قَدْ فُلَّ حَافِرُهُ

وهنا يكرر صفة اللُّؤم على جرير .. وهي صفة تجعله لا يعرف سوى الأفعال الناقصة التي تخرجهُ من أنْ يكونَ شخصاً متكاملاً ، فضلاً عن كونه ضعيف القبيلة ، فهم ـ جرير وقبيلته ـ كلُّهم غير أصلاء ، ولا تعرفهم القبائل ، على النقيضِ من قوم الفرزدق ، الأقوياء الأشداء ، الذين يمسكون زمام المعارك[٨] :

وكيف بصفحي عَنْ لَئِيمٍ تلاحقت　　إلَيْهِ بأخلاقِ الدَّناءَةِ نَاقِصِ

نَهَيْتُكَ أنْ تجري وليس بلاحقٍ　　مَشُوبُ الفِلاءِ بالجيادِ الخَوَالصِ

وفي صورة أخرى يقول إنَّ جريراً اللئيم تمنَّى أنْ يكونَ أسيراً ولا يقع بينَ أنياب الأسود الشجعان ، ويصفهُ بالهجين غير الأصيل ؛ لأنَّ أمَّهُ أعجميةٌ ليست من تميم[٩] :

ودَّ جريرُ اللؤمِ لو كانَ عانياً　　ولمْ يدنُ منْ زأرِ الأسودِ الضراغمِ

وليسَ ابنُ حمراءِ العجانِ بمفلتي　　ولمْ يزدجرْ طيرَ النُّحوسِ الأشائمِ

ويقول بأنَّ الحجارة لو تكلَّمت لخبَّرت عن مخازي جرير ، وبأنَّه لئيمٌ وسافل[١٠] :

إنَّ الحِجارَةَ لَو تَكَلَّمُ خَبَّرَت　　عَنكُم بِأَلْأَمِ دِقَّةٍ وَسِفالِ

أو لئيمٌ أثول ، كما تصفهُ أمُّهُ[١١] :

إنَّ الحياةَ إلى الرِّجالِ بغيضةٌ　　بعدَ الذي فعلَ اللَّئيمُ الأَثولُ

فاللؤم والخسة ـ إذن ـ في خُلق جرير ؛ وهذا ما شغلهُ ـ بحسب رأي الفرزدق ـ عن أهل المجد والمكارم الرفيعة[١٢] :

وشُغلتَ عن حسبِ الكِرامِ وما بنوا　　إنَّ اللَّئيمَ عن المكارمِ يُشغلُ

وأقعدهُ ـ كذلك ـ عن طلب العُلا والحسب والنسب[١٣] :

قَرَنَبى يَسوفُ قَفا مُقرِفٍ　　لَئيمٍ مَآثِرُهُ قُعدَدِ

وعلى هذا النحو قوله[١٤] :

رَأَيتُ جَريراً لَم يَضَع عَن حِمارِهِ　　عَلَيهِ مِنَ الثِّقلِ الَّذي هُوَ حامِلُهْ

أَتى الشَّأمَ يَرجو أَنْ يَبيعَ حِمارَهُ　　وَفارِسَهُ إِذْ لَم يَجِد مَنْ يُبادِلُهْ

وَجاءَ بِعِدلَيهِ اللَّذَينِ هُما لَهُ　　مِنَ اللُّؤمِ كانَت أَورَثَتهُ أَوائِلُهْ

فجرير يحمل الأثقال ولا يجعلها على ظهر حماره ، فقد جاءَ الشامَ راجياً بيعَ حمارهِ ، فإنْ تعذَّر عليه ذلك فسوف يبيع نفسَهُ مع الحمار !! وقد كان جريرٌ يحملُ عدلين ، أي المتاع الذي يكون متساوياً على ظهر حاملِهِ ، لكنَّ هذا المتاع لا يشبه ما يحملهُ الناس الأسوياء ، بل هو متاعُ لؤم كانَ قد ورثهُ من أهلِهِ اللُّؤماء .

ويستمرُ الفرزدق فيضفي صفةَ اللؤمِ على كلِّ شيءٍ يخصُّ جريراً ، فيصفُ **بيتَهُ** بأنَّه بيتُ لؤمٍ عمادهُ قصيرةٌ ؛ كنايةً عن البخلِ . مصوراً إيَّاهُ كأنَّه غطاءٌ ، واللؤمُ يحيطهُ من كلِّ جهة[١٥] :

وَبَيتُ الكُلَيبِيِّ القَصيرُ عِمادُهُ يُمَدُّ عَلَيهِ اللُّؤمُ مِن كُلِّ جانِبِ

ويُشبِّه أمَّهُ بالمراغة ـ في لؤمها ـ وهو لقب لأُنثى الحمار التي تتمرغ بعد إتيان الفحول إيَّاها في التراب منتشية بذلك[١٦] :

إنَّ المراغةَ مرَّغت يربوعَها في اللُّؤمِ حيثُ تجاهدَ

أما أبوه عطيَّة فلم يدع باباً من أبواب اللؤم إلاَّ ولجهُ وأغلق ذلك الباب عليه[١٧] :

فأغلق من وراء بني كُليب عطيَّة من مخازي اللُّؤمِ بابا

وكذا جدُّه الخَطَفَى ، فهو لئيم حلَّت وتجمَّعت عنده المخازي كلُّها[١٨] :

أَلَم تَرَ أنَّ اللُّؤمَ حلَّت ركابُهُ إلى الخطَفَى جاءتْ بذاكَ حَوامِلُهْ

ومثلُهُ خالهُ ، فهو أَلأَمُ الأخوال[١٩] :

إنَّ اِبنَ أُختِ بَني كُلَيبٍ خالُهُ يَومَ التَّفاضُلِ أَلْأَمُ الأَخوالِ

ويصفُ لؤم قوم جرير بسوادٍ قاتمٍ لو رُميت به نجومَ الليلِ ذهبَ ضوؤها ، ولو يُرمى به النهارُ تعكَّر ولم يعد صالحاً للعيش ولا السعي . فهو دنسٌ يَحجبُ النجومَ ، ويلطخُ جبينَ النهار[٢٠] :

ولَوْ تُرْمى بِلُؤمِ بَني كُلَيْبٍ نُجُومُ اللَّيلِ ما وَضَحَتْ لسارِي

ولـو يُرمى بلؤمِهم نهـارٌ لَدَنَّسَ لُؤمُهُمْ وَضَحَ النَّهارِ

وهم ـ قومُهُ ـ شرارُ الناسِ من بدوٍ وحضرٍ، يلتحفون مع مخازيهم مضاربَ قصيرة العماد ، لاسادةً فيهم ولا عظماءَ ، سبَّاقونَ في قيادة الحمير ، لا يدرونَ ما قودُ الجياد[٢١] :

أَلاَ إِنَّ اللِّئامَ بَني كُلَيبٍ شِرارُالنَّاسِ مِن حَضَرٍوَبادِ

قَبَيِّلَةٌ تَقاعَسُ في المَخازي عَلى أَطنابِ مُكرَبَةِ العِمادِ

بِأَرباقِ الحَميرِ مُقَوِّدوها وَما يَدرونَ ما قودُ الجِيادِ

ويقول فيهم أيضاً[٢٢] :

أَسَأَلتَني عَن حُبوَتي ما بالُها فَاِسأَل إِلى خَبَري وَعَمَّا تَسأَلُ

فَاللُّؤمُ يَمنَعُ مِنكُمُ أَنْ تَحتَبوا وَالعِزُّ يَمنَعُ حُبوَتي لا تُحلَلُ

وهنا يُقابل بين اللؤم والعز والاحتباءِ وعدم القدرة عليه . فالاحتباءُ الذي حمَّلَهُ الفرزدقُ معانيَ القدرة والقوة التي منحتْ قومَهُ الشعورَ بالعزَّة والأمن ، متمكنٌ فيهم لا يتحوَّل . فعزَّةُ قومِهِ وعلو شأنِهم يمنعُهم من النزول

عن هذه المرتبة . أما قومُ جرير فإنَّ لؤْمَهم وقلَّةَ شأنهم يمنعانهم من الوصول إلى هذهِ الدرجة . وبذلك أظهرتْ لنا هذه المقابلةُ البونَ الشاسعَ بين قوميهما ، وحققتْ في الوقت نفسه بُعداً أخلاقياً ونفسياً ؛ فأظهرتْ قوم الفرزدق على درجة عالية من الثبات والوقار ، أما قومُ جرير فأظهرتهم لئاماً مراوغينَ ، لا يثبتون على حال[٢٣] .

أما عن صور الأخطل في هجائه لجرير فقد كانت متنوعةً وبارعةً في كثير منها ، من ذلك قوله[٢٤] :

وجدتُ كُليباً ألْأَمَ النَّاسِ كلِّهِمْ وأنتَ إذا عُدَّتْ كليبٌ لئيمُها

فكليب ـ رهط جرير ـ هم أَلأَمُ الناس قاطبةً .. ولكنَّ جريراً ـ برأي الأخطل ـ هو أَلْأَمُ هؤلاء اللُّؤماء من قومه . وعلى المنوال نفسه يقول[٢٥] :

يا شرَّ مَنْ وَطِىءَ التُّرابَ قبيلةً حيّاً وألْأَمَ ميّتٍ مقبورا

ويقول أيضاً[٢٦] :

العادلينَ بدارمٍ يربوعَهُم جَدْعاً جريرُ لَألْأَمِ الأَعدالِ

ويقول[٢٧] :

أُمٌّ لَئيمَةُ نَجْلِ الفَحلِ مُقرِفَةٌ أَدَّت لِفَحلٍ لَئيمِ النَّجلِ شَخَّارِ

جاءَت بِهِ مُعجَلاً عَن غِبِّ سابِعَةٍ مِن ذي لَهالِهَ جَهمِ الوَجهِ كَالقارِ

والفحل اللَّئيم يقصد جريراً ، وجهم الوجه كالقار .. هي استعارة لسواد وجهه من اللُّؤم . أما قوله[٢٨] :

وَلَقَد جَشَمتَ جَريرُ أَمراً عاجِزاً وَأَرَيتُ عَورَةَ أُمِّكَ الجُهَّالا

فَإنعَق بِضَأْنِكَ يا جَريرُ فَإِنَّما مَنَّتكَ نَفسُكَ في الخَلاءِ ضَلالا

فإنَّه يسخرُ فيه من جرير مركّزاً على العيوب الأخلاقيَّة في شخصيته ، فيصفهُ أَحمقَ طائشاً لا يُقدِّرُ الأمورَ تقديراً صحيحاً فتعود عليه بنتائجَ سيئة ، حيثُ استخدمَ الأخطلُ (لقد) التي تفيد التوكيد ، وكذلك الأفعال الماضية ؛ لِمَا تحملهُ من دلالات عن كونها حقائقَ لا تقبل الجدلَ ، فهي ثابتةٌ فيهم . ويرميه بصورة بشعة كأنَّهُ يكشفُ (سوْءَةَ أُمِّهِ) للجُهال .. ثم يصفهُ بأنَّه راعي ضأْن فلا مكانَ له في المفاخر والأمجاد . وأما ما منتكَ نفسكَ به يا جريرُ في الخلاء ، وكونكَ من العظماء فهو ظلالٌ وباطلٌ ، فأنت شخصٌ عاجزٌ تهربُ إلى الخيالِ ، وتتصورُ أنَّ لكَ مكانةً عاليةً .

٢. جرير ذليلاً:

الذل صفة مذمومة ومبغوضة عند الإنسان السَّوي ، وليست من الفطرة الإنسانيَّة السليمة في شيء . فالنفس هي التي تكتسب الذل بعد أنْ يصير عندها طبعاً مألوفاً . لما سمع الفرزدق هجاء جرير للراعي النُّميري[٢٩] :

فَغُضَّ الطَّرفَ إنَّكَ من نُميرٍ فلا كَعباً بلغتَ ولا كِلابا

انبرى مدافعاً عن النميري ، مشنّعاً بحظائر خصمهِ جرير .. ملصقاً فيه مختلف الصفات السيئة ، فهو جبانٌ لم يرث مجداً ولا منقبةً يفاخرُ بها بل ورث حظائرَ وزرائبَ الشياهِ ، كنايةً عن الذُّل والهوان وقلَّة الشأن ، يقول[٣٠] :

فَإِنْ تَكُ عامِرٌ أَثرَتْ وَطابَت　　فَما أَثرى أَبوكَ وَما أَطابا

وَلَم تَرِثِ الفَوارِسَ مِن نُمَيرٍ　　وَلا كَعباً وَرِثتَ وَلا كِلابا

وَلَكِن قَد وَرِثتَ بَني كُلَيبٍ　　حَظائِرَها الخَبيثَةَ وَالزِرابَا

وقريب من هذا قوله[٣١] :

فَاِجمَع مَساعيكَ القِصارَ وَوافِني　　بِعُكاظَ يا اِبنَ مُرَبِّقِ الأَحمالِ

فهو يهزأ به أمام الناس ، فليس عنده بضاعة ذات قيمة في القول أو الفعل ؛ لأنَّه من أصل وضيع لا يصلح إلاَّ لربط البهائم التي يرعاها ، وهذا دليل الذلَّة . وفي كلمة أُخرى يقول الفرزدق إنَّ قومَهُ غلبوا جريراً ، وهو ذليلٌ يجزعُ أنْ يُسرّحَ إبلَهُ كي لا تُسلبَ منه ، إذْ لا قدرةَ له على الدفاع عنها ، أو الوقوف أمام المحاربين والفرسان الأشدَّاء . ثم يمضي الفرزدق مفتخراً مجسِّداً المجدَ كأنَّه شيء يُغرف ، فيقول : إذا كانت للناس مغرفةٌ لينالوا هذا المجد فنحن لنا مغرفتين دلالة على العزَّة والمنعة ، ولذا يأمر جريراً أنْ يُطبقَ أجفانه على هذا الذُّلِ ويشربُ شرابَ الرعاة الحقير الذي اعتادَ عليه مع طعامهِ من السويق ، وهو الحنطةُ والشعيرُ يخلطُ في الماء . إذْ يقول[٣٢] :

تَكاثَرُ يَربوعٌ عَلَيكَ وَمالِكٌ　　عَلى آلِ يَربوعٍ فَما لَكَ مَسرَحُ

إِذا اِقتَسَمَ النَّاسُ الفَعالَ وَجَدتَنا　　لَنا مِقدَحا مَجدٍ وَلِلنَّاسِ مِقدَحُ

فَأَغضِ بِشُفرَيكَ الذَّليلَينِ وَاِجتَدِح　　شَرابَكَ ذا الغَيلِ الَّذي كُنتَ تَجدَحُ

ويمعنُ الفرزدق في ذمّ جرير ويصفهُ بالتذبذب فيوشك أو يكاد أنْ ينفكَّ وينقطع من نسبهِ الضعيف وكأنَّهُ يكرهُ أنْ يكونَ من بني يربوع اللُّؤماء الأذلاَّء ، فيحاولُ اللحاقَ بنسب أرفعَ وأسمى من نسبهِ الحقيقي ، فيقول[٣٣] :

مَازِلْتُ أَتْبَعُ أَشْيَاخِي وأُتْعِبُهُ　　حتَّى تذَبْذَبْتَ يا ابن الكلبِ بالنَّسبِ

وهذا تصويرٌ دقيقٌ من الفرزدق لحالة جرير النفسيَّة في عدم رضاه على نسبهِ وقبيلتِهِ ، فهو يتقلَّبُ في النسب ويتحرك ولا يستقر ، ويحاول أنْ يتسامى ليرفعَ من قدرهِ أمام الفرزدق وقومهِ الأسياد ، الذينَ لا يجارونَ . فالفرزدق يعتزُّ بأهلهِ ، ولا يحاولُ أنْ ينفكَّ منهم ، على العكسِ من جريرٍ فهو لا يألو جهداً محاولاً الأنفكاكَ من قبيلته ، وإلحاق نسبهِ بقوم أمثال قوم الفرزدق . ولذا هو يقتفي أثرَهُ لاهثاً كالكلبِ .. ولكن لا قدرةَ له بمجاراته .

ويستنكر الفرزدقُ على جرير ويتعجب كيفَ يطلبُ مجدَ بني دارم ومَنْ لديه ليفاخرَ به ، هل يفخر بأبيه عطيَّةَ الذي يصفهُ ـ الفرزدق ـ بالجُعَل الأسود ، وهي دويبةٌ صغيرةٌ كناية عن الوضاعة والذُّل[٣٤] :

أَيَطْلُبُ مَجْدَ بَني دارِمٍ عَطِيَّةُ كَالجُعَلِ الأَسْوَدِ

سَأَرْمي وَلَوْ جُعِلَتْ في اللِّئَا مِ وَرُدَّتْ إِلى دِقَّةِ المَحْتِدِ

أم يفخر بقومه الأذلاء وعرضه اللئيم الذي لا يميل عنه[٣٥] :

أَبى لِجَريرٍ رَهطُ سُوءٍ أَذِلَّةٌ وَعِرضٌ لَئيمٌ لِلمَخازي مُوَقَّفُ

لقد تكلَّف جرير ـ برأي الفرزدق ـ عناءَ مسألةٍ لا يستطيعها أبداً ، فهم ـ قوم الفرردق ـ كالنجوم العالية لا يسابقهم جرير لينال المجد بأَعيار قومه[٣٦] :

فَإِنَّكَ إِذْ تَسعى لِتُدرِكَ دارِماً لَأَنتَ المُعَنَّى يا جَريرُ المُكَلَّفُ

أَتَطلُبُ مِن عِندَ النُّجومِ وَفَوقَها بِرِبقٍ وَعَيرٍ ظَهرُهُ مُتَقَرِّفُ

وأنَّه ـ جريراً ـ لمَّا أراد أنْ يطلب بأبيه عطيَّة الهزيل دارماً الكريم كَمَنْ سلك طريق وبارٍ لا وجود لها[٣٧] :

وَلَقَدْ ضَلَلْتَ أَباكَ تَطْلُبُ دارِمًا كَضَلالِ مُلْتَمِسٍ طَرِيقَ وَبَارِ

لا يَهْتَدي أَبَداً وَلَوْ نُعِتَتْ لَهُ بِسَبِيلِ وَارِدَةٍ وَلا إِصْدارِ

ولذلك يأمرهُ الفرزدق أنْ يقبل حَبْل أبيهِ المتهرىء ، فهو ميراثهُ الوحيد المتبقّي له في هذه الدنيا ، يقول[٣٨] :

أَلاَ إِنَّ ميراثَ الكُلَيبِيِّ لِابنِهِ إِذا ماتَ رِبقاً ثَلَّةٍ وَحَبائِلُهْ

فَأَقبِل عَلى رِبقَي أَبيكَ فَإِنَّما لِكُلِّ اِمرِئٍ ما أَورَثَتهُ أَوائِلُهْ

وهنا تصل درجة التوتر عند جرير ـ على لسان الفرزدق ـ إلى الذروة عندما أدرك استحالة الوصول إلى غالب ومجده التليد فأراد التخلصَ من أبيهِ ، هذا الأبُ الذي أورثَهُ المخازيَ ، لولا أنْ تدخَّلَ الفرزدق ناصحاً ومذكراً إيَّاهُ بأنَّ عطية أبوهُ ، مقترحاً عليه أنْ يستبدل به آخر ، أرفع مكانةً ورتبةً ، فإنْ لم يجد فليقتلهُ بعد ذلك ، يقول[٣٩] :

أَمِنْ جَزَع أَنْ لَمْ يَكُنْ مِثلَ غَالِبٍ أبوك الذي يمشى بربقٍ مُوصَّلِ

ظَلِلتَ تُصَادِي عن عطيَّة قائماً لِتَضْرِبَ أَعْلَى رَأْسِهِ غَيْرَ مُؤْتَلِ

لكَ الوَيْلُ لا تَقْتل عطيَّة إِنَّهُ أبوك ولكن غيرهُ فَتَبَدَّلِ

وبادل به من قومِ بضعةَ مثلَهُ أَباً شَرَّ ذي نَعْلينِ أو غيرِ مُنْعَلِ

فإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَقْبَلُوهُ وَلَمْ تَجِدْ فِراقاً له إلاَّ الذي رُمْتَ فافعلِ

ويقول أيضاً[٤٠] :

تَرَكنا جَريراً وَهوَ في السُّوقِ حابِسٌ　　عَطِيَّةَ هَل يَلقى بِهِ مَنْ يُبادِلُهْ

فَقالوا لَهُ رُدَّ الحِمارَ فَإِنَّهُ　　أَبوكَ لَئيمٌ رَأسُهُ وَجَحافِلُهْ

ولعلَّه لا يخفى على القارىء اللبيب أنَّ الفرزدق بهذه المفارقات كان يؤججُ ما يعتملُ في صدر جرير من حزن وحنق وأسف ؛ بسبب نسبه الوضيع الذليل ، إذا قيسَ بنسب الفرزدق ؛ ليزيدَ من حزنهِ وألمِهِ ، فمن أين لجريرٍ بآباء مثل آباءِ الفرزدقِ وأعمامه وأخواله ، يقول[٤١] :

وَأَنتَ بِوادي الكَلبِ لا أَنتَ ظاعِنٌ　　وَلا واجِدٌ يا اِبنَ المَراغَةِ بانِيا

عَلَيكُم بِتَربيقِ البِهامِ فَإِنَّكُم　　بِأَحسابِكُم لَنْ تَستَطيعوا رِهانِيا

بِأَيِّ أَبٍ يا اِبنَ المَراغَةِ تَبتَغي　　رِهاني إِلى غاياتِ عَمّي وَخالِيا

على هذا المنوال حاول الفرزدق أنْ ينال من جرير بأيِّ طريقة ، وأنْ يذلَّهُ ويُقلِّل من شأنهِ ويخرجه من دائرة الإنسان السَّوي الكامل العقل ، حتى وصل به الأمر أنْ يسخر من زيارته لقبر امرأته الميتة ؛ لأنَّ الموتى ـ برأيه ـ لا يُزارون ، بل الزيارة للأشخاص الذين على قيد الحياة ، يقول[٤٢] :

إِنَّ الزيارةَ في الحياةِ ولا أَرى　　ميْتاً إذا دخلَ القبورَ يُزارُ

ويُشبِّه الأخطل جريراً بالقذى الذي كدَّر الماء وغيَّر لونه بما يحملُ من الأوساخ ، لكن السيل الجارف المتمثل بفرعي وائل (بكر وتغلب) قذفه بعيداً (فضلَّ ضلالاً) ، وفي هذا إيحاءٌ بضعفِ الخصمِ ـ جرير ـ وحقارتهِ وذلِّه وسط هذا السيل الصاخب المنحدر الدال على معنى الحشد الفائض والقوة التي لا تُدفع . يقول[٤٣] :

وإذا سما للمجدِ فَرْعا وائلٍ　　واستجمعَ الوادي عليك فَسَالا

كنتَ القذى في موجِ أكدرَ مُزْبِدٍ　　قذفَ الأَتِيُّ به فَضَلَّ ضَلالا

وفي كلمة أخرى يُعيِّرُ الأخطل جريراً عندما طلبَ الشرف الدَّارمي ، فواقعه دوني ، وتتجلَّى الدونيَّة في حقارة الملبس واتساخه ، فهو متلفِّفٌ في (بردة حبقيَّة) ، وأمَّا مسكنه فهو حقيرٌ وذليلٌ بفناءِ بيتِ مذلَّةٍ وهوان ، وأمَّا مأكله فرديء (ثلة مذمومة) ، وكذلك بالنسبة لطموحه في الحياة فلا هَمَّ له إلاَّ أنْ يمتلك حبلاً يشدُّ به أعناق دوابه ، يقول[٤٤] :

مُتَلَفِّفٌ في بُرْدَةٍ حَبَقِيَّةٍ　　بِفَنَاءِ بَيْتِ مَذَلَّةٍ وَهَوَانِ

يَغْدو بَنِيْهِ بِثَلَّةٍ مَذْمُومَةٍ　　وَيَكُونُ أَكْبَرَ هَمِّهِ رِبْقَانِ

ويقول أيضاً[٤٥] :

وَلَقَد جَشَمتَ جَريرُ أَمراً عاجِزاً　　وَأَرَيتَ عَورَةَ أُمِّكَ الجُهَّالا

فَانعَق بِضَأنِكَ يا جَريرُ فَإِنَّما مَنَّتكَ نَفسُكَ في الخَلاءِ ضَلالا

وهنا يصفهُ بأنَّه راعي ضأن لا مكانَ له في المفاخر والأمجاد ، وإنَّ ما منتهُ به نفسهُ في الخلاء وكونه من العظماء فهو ظلالٌ وباطلٌ وضربٌ من الخيال ؛ لأنَّه شخصٌ وضيع قليل الشأن ، فضلاً عن كونه أحمقاً طائشاً لا يقدر الأمور تقديراً صحيحاً فتعود عليه بنتائج سيئة . ويلحُّ الأخطل ويُكرر هذه الصفة ـ صفة الذل ـ التي ينسبها لجرير كثيراً ، فيقول : عند ورودك الماء ياجرير إحبس أعيارك عن السِّقاية ، صاغراً ذليلاً مُهاناً ؛ لأنَّ حاجب وعقال ـ أجداد الفرزدق ـ هم أصحاب التقدم الباكر في سقي إبلهم ؛ لقوتهم ومنعتهم ، فيقول[٤٦] :

وإذا وَرَدْتَ جريرُ فاحبِسْ صاغراً إنَّ البكورَ لحاجبٍ وعِقالِ

وإلى مثل هذا ذهب الفرزدق ، فجرير وقومه ـ عنده ـ لا يقوونَ أنْ يشربوا إلاَّ بعدَ الناسِ كلِّهم ؛ فهم المساكينُ الضعفاءُ ، والأذلاءُ المغلوبِ على أمرِهم ، يقول[٤٧] :

يا اِبنَ المَراغَةِ إِنَّما جارَيتَني بِمُسَبَّقينَ لَدى الفَعالِ قِصارِ

وَالحابِسينَ إِلى العَشِيِّ لِيَأخُذوا نُزُحَ الرَّكِيِّ وَدِمنَةَ الأَسآرِ

ولمَّا كان الفرد ، من وجهة نظر الهاجي ، يستمدُ العزَّة والكبرياء من قبيلته العريقة ، ويشعر ، أيضاً ، بالذل والهوان منها ، فإنَّ الفرزدق يضع يديهِ على الجروح المؤلمة ـ التي تدخل إلى الجذور ، وتغرس القهرَ والذل في نفس المهجو ـ من خلال مقارناتهِ التي تعمل على تجلية تلك الجروح بشكلٍ عام . إذْ يقول [٤٨] :

مِن عِزِّهم جَحَرَتْ كُليبٌ بيتَها زَرباً كأنَّهمْ لديه القُمَّلُ

ضَربتْ عليكَ العَنكبُوتُ بنَسجِها وقضى عليكَ بهِ الكتابُ المُنزَلُ

أينَ الذينَ بِهم تُسامي دارِماً أم مَنْ إلى سَلفي طُهيَّةَ تجعلُ

ويقول أيضاً[٤٩] :

أَرداكَ حَينُكَ إِذْ تُعارِضُ دارِماً بِأَدِقَّةٍ مُتَأَشِّبينَ لِئامِ

صَغُرَت دِلاؤُهُمُ فَما مَلَأوا بِها حَوضاً وَلا شَهِدوا عِراكَ زِحامِ

ولعلَّه لذلك كلِّه يقول له[٥٠] :

فادفع بكفك إنْ أردت بناءَنا ثهْلانَ ذا الهَضبَاتِ هَلْ يَتَحَلحَلُ

ويقول[٥١] :

تَعاط مَكَان النَّجم إنْ كنتَ طالباً بني دارمٍ فانظر متى أنتَ نائِلُهْ

فجرير لخسته ودناءته وقلَّة شأنه فإنَّه يستحيل عليه أنْ يبلغَ ما بلغه قومُ الفرزدق من الرفعة والسؤدد ، كاستحالة أنْ يُحرِّكَ جبلَ ثهلانَ بكفيه ، أو ينال النَّجم بيديه . من هنا كان يتمنَّى جرير أنْ يكونَ أبوه هو (

غالب) ـ والد الفرزدق ـ بدل (عطيَّة) ، وأنْ تكون قبيلته (دارم) بدل (كليب) . ولكنَّ ذلك منه بعيد فأين الشمس من الكواكب ، يقول[٥٢] :

تَمَنَّى جَريرٌ دارِماً بِكُلَيبِهِ وَهَيهاتَ مِن شَمسِ النَّهارِ الكَواكِبُ

وَلَيسَت كُلَيبٌ كائِنينَ كَدارِمٍ وَوَدَّ جَريرٌ لَو عَطِيَّةُ غالِبُ

ويقول أيضاً[٥٣] :

وَأَنتَ حَريصٌ أَنْ يَكونَ مُجاشِعٌ أَباكَ وَلَكِنَّ اِبنَهُ عَنكَ شاغِلُهْ

فَتَحمَدَ ما فيهِم وَلَو كُنتَ كاذِباً فَيَسمَعَهُ يا اِبنَ المَراغَةِ جاهِلُهْ

على هذا النحو كان الذل عند جرير ـ برأي الشاعرين الفرزدق والأخطل ـ سمةٌ بارزة وطبعٌ موروث ملازم له لا حيلة للفكاك منه . وهذا ما جعلهُ يعيش بأريحيَّة تامة من دون إحساس بدناءة تلك المعيشة .

٣. جرير جباناً :

لقد أحبَّ العرب صفةَ الشجاعة وتغنُّوا بها ؛ بسبب طبيعة حياتِهم الصعبة في الجزيرة العربية ، فهم يتراوحونَ بين حالتين إما غازونَ قبائل غيرهم ؛ لتأمين قوتهم ، وإما مدافعونَ عن قبائلهم ، وكان للشجاعة مكانةٌ كبيرةٌ لدرجة أنَّها تكون ثمناً للحرية والاعتراف بالنسب ، إنْ صحَّت المصادر التي تذكر نيلَ الشاعر الجاهلي الشهير عنترة العبسي لحريته والاعتراف به ؛ لفرط شجاعته وقوته في المعارك التي خاضها ، وقد بقيت أسماءُ الفرسان الأشداء صامدةً كل هذه الفترة الزمنية الممتدة ، حيث يرد ذكرها مراراً في كتب الأدب ، أمثال عامر بن الطفيل ، ودريد بن الصِّمة ، وعمرو بن معد يكرب ... وغيرهم . وعلى النقيض من الشجاعة صفة الجُبن الذميمة التي يأنفُ العربي من الإتصافِ بها ؛ لأنَّها تُشير إلى فشل الشخصية في مواجهة التحدي ، عندما يزداد الخوف وقلق النفس الذي يتجاوز فعلَ أو قولَ ما هو حق وخير [٥٤] . وقد حذَّر اللهُ تعالى المسلمينَ من صفة الجبن ، وحثَّهم على الثبات عند الخوف والمصاعبِ ومواجهة الأعداء ، إذْ قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٥٥] . كذلك ذم النَّبي ﷺ الجبن والبخل ونهى عنهما ، فقال : ((شرُّ ما في رجلٍ شحٌّ هالع ، وجبنٌ خالع))[٥٦] . ولنقترب ، الآن ، قليلا من النصوص الدالة على جبن جرير في شعر زميليه الفرزدق والأخطل . يقول الفرزدق[٥٧] :

يُهْدِي الوَعيدَ وَلا يَحوطُ حَرِيمَهُ كَالكَلْبِ يَنْبَحُ مِنْ وَرَاءِ الدَّارِ

لقد صورَ الشاعر جريراً بصورة الكلب الذي ينبح من وراء الدار ، كنايةً عن الجبنِ ، وأنَّهُ يتوعدُ الأعداءَ من دون تنفيذ تلك التهديدات ، ويغمزُ نساءَهُ ويتهمنَّ بعمل الفاحشة ؛ لأنَّ رجالهنَّ جبناء لا يستطيعونَ محاسبتهُنَّ ، بل أنَّهن ساقطاتٌ متمرِّداتٌ وتصريفُ أمور الحياة بأيديهنَّ فيفعلنَّ ما يحلو لهنَّ من موبقات وأفعال سيئة . ويصف الشاعر جريراً بالراعي ، ولكنَّهُ ليس ككلِّ الرعاة إنَّه راعٍ للضأن ، ويتعجب كيف يلبس درع الحرب ، ويحمل السيف وهو لا يستطيع أنْ يُدافعَ بهما عن الأهل والقبيلة فالدرع لباس الرجالِ الأقوياء ، المدافعينَ المانعينَ عن القبيلة ، وما جرير إلاّ راعٍ لا يحتاج غير الربق والحبال التي تُربطُ بها المعزى وغيرها من

الهائمِ التي يرعاها . ويصفهُ بالمرأة الحبلى التي لا تستطيع أنْ تلبسَ السلاح ، وحَمْل عدَّة الحرب ، ويضيفُ إلى ذلك أنَّه ليس لديه القدرةَ على المواجهة فهو مهزومٌ لا محالةَ من الرجال في ساحات المعارك ، وقد خرجتْ منه ريح كريهة كناية عن جبنه وخوفه منهم ، يقول[٥٨] :

عَجِبْت لراعي الضَّأْنِ في حُطَمِيّة　　وَفِي الدَّرْعِ عَبدٌ قد أُصيبت مَقاتِلُهْ

وهَل تلبس الحُبْلَى السِّلاحَ وَبَطنُهَا　　إذا انتَطَقَتْ عِبْءٌ عَلَيْهَا تُعادِلُهْ

أَفَاخَ وألقَى الدِّرْعَ عَنهُ وَلَمْ أَكُنْ　　لَأُلقي دِرْعي من كَمِيٍّ أُقاتِلُهُ

فهو ـ جرير ـ لم يعرف الحرب ورجالها ؛ لأنَّه راعٍ يقضي جُلَّ وقته يجري خلف البهائم ، يبحثُ عن الماء والمرعى الخصب ، وهذه من صفات الرعاة . أما شأنُ المعارك فهي موكولةٌ بالفرزدق وقبيلته ، فهي متأصلة فيهم ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ، وهم يعضُّون عليها بالنواجذ يوم الزحف والصيحة والدفاع عن الأطفال والنساء . وعلى هذا النحو قوله[٥٩] :

وَما أَلبَسوهُ الدِّرعَ حَتَّى تَزَيَّلَت　　مِنَ الخِزيِ دونَ الجِلدِ مِنهُ نِعالُهُ

ويستمرُ الفرزدقُ بإضفاء الصور الساخرة على جرير ، فيصفهُ جباناً لم يعْقِدْ لسيفٍ حِمالةً ، لكنَّه يضعُ حبلاً لقِرَبِ الماءِ ، كنايةً عن الوضاعة وأنَّه خادمٌ ، وهو إذا ادَّعى الحسبَ والكرمَ لا يجد في قومهِ سوى اللؤم والذُّل والهوان[٦٠] :

جَباناً وَلَم يَعقِدْ لِسَيفٍ حِمالَةً　　وَلَكِن عِصامُ القِربَتَينِ حَمائِلُهْ

أَلاَ تَدَّعي إنْ كانَ قَومُكَ لَم تَجِد　　كَريماً لَهُم إلاَّ لَئيماً أَوائِلُهْ

ويستغربُ الأخطل ويهزأ من قوم جرير الذين يريدون منه أنْ يَذِبَّ عنهم وهو جبان ليّن لا يقوى على حمايتهم والدفاع عنهم[٦١] :

يقولونَ ذَبِّبْ يا جريرُ وراءَنا　　وليس جريرٌ بالمُحامي ولا الصُّلْبِ

ومن نحو هذه الصورة ، أيضاً ، قول الفرزدق محاولاً أنْ يحطَّ من قدره أمام القبائل ، وأنَّه جبان ، ليس من الذين يُعتمد عليهم في المعارك ، ولا من المدافعينَ عن الجار ، أو الذين يلوذ أحدٌ بحماهِم[٦٢] :

عَجِبتُ إلى قَيس وما قد تكَلَّفَتْ　　مِنْ الشَّقْوَةِ الحَمقَاءِ ذاتِ النَّقائِمِ

يَلُوذُونَ مِنِّي بالمَرَاغَةِ وابنها　　وما مِنْهُمَا مِنِّي لَقَيْسٍ بِعَاصِمِ

فجرير ـ بنص الفرزدق ـ جبان لا يستطيع الدفاع عن قيسٍ ولا عن كليبٍ ، وإنَّ قيساً حين أَوكلتْ أمورها إليه لم يصبها سوى الشقاء ، وكَثُر عليها الطامعون والشامتون ؛ لأنَّ جريراً لا يملكُ إلاَّ أفعالاً رديئةً وليس لديه القوة على مجاراة الفرزدق لا بالشعر ولا بغيرهِ .

وقريب من بيتيه السابقين ، قوله لقيس أيضاً[٦٣] :

أما كانَ في قَيسِ بنِ عَيلانَ نابِحٌ　　فَيَنبَحُ عَنهُم غَيرُ مُستَولَغٍ كَلْبِ

وَكانَ لَهُم لَمّا عَوى الكَلبُ دونَهُم　　جَريرٌ عَلَيهِم مِثلَ راغِيَةِ السَّقبِ

وقوله لكُليب[٦٤] :

وإنَّ كُليباً إذْ أتتني بعبدِها　　كَمَنْ غرَّهُ حتَّى رأى الموتَ باطِلُهْ

رَجَوْا أنْ يردُّوا عنْ جريرٍ بدرْعهِ　　نوافذَ ما أرمي وما أنا قائِلُهْ

ولأنَّه ضعيف جبان ، فهو غير قادر على إبعاد الأذى عن قومهِ وأهلهِ ؛ ولذلك تركهم عرضةً للأخطار وهجاء الشعراء[٦٥] :

وإنَّكَ قد تركتَ بني كُليبٍ　　لكُلِّ مناضلٍ غَرَضاً مُصابا

كما جرَّ عليهم المخزيات ، وجلب لهم الويل والهلاك[٦٦] :

وجَرَّ المُخزِياتِ عَلى كُلَيبٍ　　جَريرٌ ثُمَّ ما مَنَعَ النِّمارا

وَكانَ لَهُم كَبَكرِ ثَمودَ لَمّا　　رَغا ظُهراً فَدَمَّرَهُم دَمارا

عَوى فَأَثارَ أَغلَبَ ضَيغَمِيّاً　　فَوَيلَ اِبنِ المَراغَةِ ما اِستَثارا

وعلى هذا المنوال نفسه قول الأخطل ، فهو يُقسم بأنَّ كليباً اذا اتبعتْ وأيَّدت أمرَ جرير وضلَّ أصحابُ الرَّأي فيها ، فإنَّه سيقودها الى الضلال والهلاك ، كونهُ خوَّار القَنا ، أي جبان ضعيف ليس من أهل الحرب والطعان ، يقول[٦٧] :

لعمري لئنْ كانتْ كليبٌ تتابعتْ　　على أمرِ غاويها وضلَّتْ حُلومُها

لقد عَمُوا منّي قناةً صَليبَةً　　إذا ضجَّ خَوَّارُ القَنا وسَؤُومُها

ويصور الفرزدق البون الشاسع بين قومه السادة الشجعان وبين قوم جرير الرُّعاة الجبناء ، فيقول[٦٨] :

وإنْ تكُ كَلْبَاً مِنْ كَلَيْب فَإِنَّني　　مِنَ الدَّارِمِيّينَ الطُّوال الشَّقَاشِقِ

نَظُلُّ نَدَامَى لِلْمُلُوكِ وَأَنْتُمُ　　تُمَشَّونَ بالأَرْبَاقِ مِيلَ العَواتِقِ

وإنَّا لَتَرْوَى بالأكفِّ رِماحُنَا　　إذا أُرْعِشت أيْدِيكُمُ بالمَعَالِقِ

فهو يقول إنَّ جريراً كلبٌ من كليب ، أمَّا هو فسيِّدٌ من بني دارم الأسياد ، الذين ينادمون الملوك ، وليسوا كقومِ جرير الرُّعاة ، الذين يظلُ الواحد منهم سائراً وراء أعنزه ممسكاً بأرباقها، مائلاً في مشيتِهِ ؛ بسبب ما يعتريه من التعب والهوان ، وعند الحربِ ترى بني دارمٍ يخوضونها شجعاناً ثابتين ، في الوقت الذي ترتعشُ فيه أيدي بني كليب ، ومنهم جرير ، وهم يحلبون ماشيتَهم في المعالق ؛ خوفاً من هذه الحرب التي ينتظرون نتائجها.

٤. **صور أخر:** وغير ما ذكرناه من صور لجرير أشار إليها الشاعران ، يصفهُ الفرزدق بالمفروكِ الذي تكرههُ النساء وبخاصة زوجته ـ لعيبٍ فيه ـ وهو يتمنى أنْ يظلَّ مؤرقاً لا ينام[٦٩] :

فَقَد جَعَلَ المَفروكُ لا نامَ لَيلُهُ بِحُبِّ حَديثي وَالغَيورِ المُشايِحِ

وَقَد كُنتُ مِمَّا أَعرِفُ الوَحْيَ ما لَهُ رَسولٌ سِوى طَرْفٍ مِنَ العَينِ لامِحِ

ويصفه ، أيضاً ، بالرَّجل الدَّيوث الذي لا يحافظ على عِرْضِهِ ؛ لأنَّهُ ـ برأي الفرزدق ـ ابن لامرأة غير حرَّة ، تَهَبُ نفسها للقاصي والداني[٧٠] :

ولو كنتَ حرَّ العِرضِ أو ذا حفيظةٍ جَرِيْتَ ولكن لم تلدك الحرائرُ

ولذلك لا نستغرب إنْ قال[٧١] :

قالتْ لشاعرها كليبٌ كلها أتنيكُ أمَّكَ أمْ تُقادُ فتُقتلُ؟

والموتُ أهونُ يا جريرُ منَ التي عرضتْ عليكَ فأيَّ تينكَ تفعلُ

والمرتينِ يخيرونكَ فيهما فالموتُ منْ خلقيْ عجوزكَ أجملُ

فاختارَ نيكَ كبيرةٍ قدْ أصهرتْ شمطاءَ ليفُ عجانِها يتفتَّلُ

كما يصوره بأنَّه عاقٌّ لوالديه ، بل لم تحمل أُمٌّ أعقَّ منه على مرِّ الأزمان ، فيقول[٧٢] :

وَما حَمَلَتْ أُمُّ اِمرِئٍ في ضُلُوعِها أَعَقَّ مِنَ الجاني عَلَيها هِجائِيا

كذلك يدَّعي ـ على لسان أمامة زوجة جرير ـ أنَّه كان يأتي البهائم ، فيقول[٧٣] :

لَعَمْري لَقَدْ قالَتْ أُمامةُ إِذْ رَأَتْ جَريراً بِذاتِ الرَّقْمَتَيْنِ تَشَنَّعا

أَمُكتفِل بالرَّقم إذْ أنتَ واقفٌ أَتانَكَ أم ماذا تُريد لتصنعا

رأيتُكَ تغشَى كاذَتَيها ولم تكن لتركبَ إلاَّ ذا السُّحوج الموقَّعا

ويُشير إلى هذا الأمر الشنيع القبيح في كلمة أخرى ، فيقول على لسانها أيضاً[٧٤] :

تقُولَ وصكَّتْ حُرَّ خدَّي مغيظةٍ على البعلِ غيري ما تزالُ تلهَّفُ

أمَا مِنْ كُليبي إذا لمْ تكُنْ لهُ أَتانانِ يستغني ولا يتعففُ

إذا ذهبتَ مِنِّي بزوجي حِمارةٌ فليسَ على ريحِ الكُلِيبيّ مأسفُ

ويقول في موضع آخر[٧٥] :

هلاَّ سألتَ بني غُدانةَ ما رأوا حيثُ الأَتانُ إلى عمودكَ تُرحلُ

كسرتْ ثنيَّتَكَ الأَتانُ فشاهدٌ منها بفيكَ مُبيَّنٌ مُستَقْبَلُ

رمحتكَ حينَ عجلتَ قبلَ وداقها لكنْ أبوكَ وداقها لا يعجلُ

أما قول الفرزدق في جرير[٧٦] :

ضربت عليكَ العنكبوتُ بنسجِها وقضى عليك به الكتابُ المنزلُ

فنلاحظ فيه هجاءً أفقياً تُشير إليه الآية الكريمة ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[٧٧] ، فليس هنالك بيت ـ برأي الفرزدق ـ أوهن من بيت جرير ، فهو كبيت العنكبوت واهٍ ضعيف كما وصفه الباري عزَّ وجل . وهو بذلك ـ الفرزدق ـ يُريد تقريب المهجو من صورة الكفار ، بدليل قول الطبرسي في تفسير الآية : (شبَّه حالَ الكفار الذين اتخذوا من دونهِ آلهةً بحال العنكبوت ... أي : شبَّه مَنْ اتخذ الأصنام آلهةً يريدون نصرها ونفعها وضرَّها والرجوع إليها عند الحاجة كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً لنفسها لتأوي إليه ، فكما إنَّ بيت العنكبوت لا يُغني عنها شيئاً ؛ لكونه في غاية الوهن والضعف ولا يُجدي نفعاً ، كذلك الأصنام لا تملكُ لهم خيراً وشراً ، ونفعاً وضراً)[٧٨] .

وقريب من هذه الصورة الكفرية ، قوله[٧٩] :

وَابنُ المَراغَةِ قَد تَحَوَّلَ راهِباً مُتَبَرنِساً لِتَمَسكُنٍ وَسُؤالِ

ومكبلٍ تركَ الحديدُ بساقهِ أَثرًا من الرسفانِ والأحجالِ

نَظَروا إِلَيَّ بِأَعيُنٍ مَلعونَةٍ نَظَرَ الرِّجالِ وَما هُمُ بِرِجالِ

وهنا يصف جريراً وقد تحوَّل راهباً متبتلاً لا لدينٍ يؤمنُ به نابعاً من أعماقهِ ، بل لكي ينال العطايا عن طريق الخديعة والتمسكُن ، وفي صورة ثانية يصفه وقد كبَّلَ نفسَهُ بالحديد الذي ترك أثراً في ساقهِ ليس زهداً ولكن ليُكملَ الخديعةَ والإحتيال على الناسِ حتى يَمُنُّوا عليه بالأُعطيات ، ويختتمُ الأبيات في نَفَسٍ جاهلي يذكِّرنا بزهير بن أبي سلمى[*] ، حيث ينفي عن جرير وقومه صفة الرجولة وأنَّهم مخنثون رَنوا إليه بأَعيُنٍ شريرة ملعونة كأصحابها . ويمثله ، في كلمة أخرى ، في صورة الوضيع المرتزق وينعتهُ بحيض المراغة كنايةً عن الخسَّة والوضاعة والدناءة . فما جرير ـ برأي الفرزدق ـ إلاَّ كلبٌ يعوي بتفضيله قبيلة قيس عيلان طامعاً فيما لديهم فلا يجد مَنْ يطعمهُ منهم ؛ لأنَّهم يعرفون إنَّه عبدٌ مرتزقٌ يُدافعُ عنهم مقابلَ أَجرٍ . وليس حمية أو إنَّهم مستحقون هذا الدفاع ، فالاثنان يتشاركان في الوضاعة وخبث المنبت . يقول[٨٠] :

سَتَعلَمُ يا حَيضَ المَراغَةِ أَيُّنا لَهُ حينَ يَدعو مِن تَميمٍ قَماقِمُهْ

أَلَم تَعوِ عَن قَيسِ اِبنِ عَيلانَ باسِطاً إِلَيهِم يَدَي مُستَطعِمٍ لا تُطاعِمُهْ

وشبيه بهذه الصورة قوله مفسِّراً موقفه من قيس عيلان بأنَّه موقف **الدَّعي المرتزق** الذي يتنكر لقومه في سبيل نهزة يصيبها ، أو كسب تافه يُلقى إليه به ، فيفقد بذلك انتماءَهُ لقومه ، ولا يلحق انتماءً بالآخرين ، فيقول[٨١] :

فَما أَنتَ مِن قَيسٍ فَتَنبَحَ دونَها　　وَلا مِن تَميمٍ في الرُؤوسِ الأَعاظِمِ

وَإِنَّكَ إِذْ تَهجو تَميماً وَتَرتَشي　　تَبابينَ قَيسٍ أَو سُحوقَ العَمائِمِ

كَمُهريقِ ماءٍ بِالفَلاةِ وَغَرَّهُ　　سَرابٌ أَثارَتهُ رِياحُ السَّمائِمِ

ومن صور جرير التي ذكرها الفرزدق ، أيضاً ، صورة السارق ، فالسرقة والإنتحال ، والإفتراء والإدعاء ، سمةٌ ملازمةٌ للمهجو ، ولذا نظرَ إليها الفرزدق بجديَّة عالية ، فكرَّرَ هذه الفكرةَ في أكثر من بيت شعري وبألفاظ مختلفة مشبّهاً سرقةَ جرير قصائده ، بادعائه أباً غير أبيـه ، فقال[٨٢] :

إِنَّ اِستِراقَكَ يا جَريرُ قَصائِدي　　مِثلُ اِدِّعاءِ سِوى أَبيكَ تَنَقَّلُ

وَابنُ المَراغَةَ يَدَّعي مِن دارِمٍ　　وَالعَبدُ غَيرَ أَبيهِ قَد يَتَنَحَّلُ

لَيسَ الكِرامُ بِناحِليكَ أَباهُمُ　　حَتّى تُرَدُّ إِلى عَطِيَّةَ تُعتَلُ

وَزَعَمتَ أَنَّكَ قَد رَضيتَ بِما بَنى　　فَاِصبِر فَما لَكَ عَن أَبيكَ مَحَوَّلُ

وَلَئِن رَغِبتَ سِوى أَبيكَ لِتَرجِعَنْ　　عَبداً إِلَيهِ كَأَنَّ أَنفَكَ دُمَّلُ

ومن الملاحظ أنَّ الشاعر قد حاول ، هنا ، ربط الصفات المعنوية مع بعضها ، من خلال انتقاله من صورة إلى أخرى في آنٍ واحد ، مع ارتباط السلوك النفسي في كلّ مرَّة بصورة هجائيَّة جديدة ، ولم يكتفِ بذلك ، بل حاول أنْ يُبيّن أنَّ سبب هذه السرقة عائد إلى أصله اللئيم ونسبه المُشين ؛ ولذلك قال من جديد[٨٣] :

لن تدركوا كَرَمِي بلُؤْمِ أَبيكُمُ　　وَأَوابدي بِتَنَحُّلِ الأَشعارِ

وصفوة القول : إنَّ الفرزدق والأخطل قد اجتمعا على جرير ونالا منه ، وعيَّراهُ بلؤمه وفقره ، وهوان حسبهِ ، وضعة نسبهِ ، وضعفهِ وجُبنهِ .. فأكثرا من صور السَّفاهة والبذاءة ، وأوغلا في الإسفاف والفحش ، حتى جعلا منه أُضحوكة بين الناس . وهذا ـ والقول لبعض الدارسين[٨٤] ـ ما أفادهُ إفادةً عظيمة ؛ إذْ أَضْراهُ بالهجاء ، وجعلهُ يُكثر القول فيه ، ففُتِنَ بذلك وثارت نفسهُ ، وأخذ ينشر مخازي خَصْمَيْه ـ الفرزدق والأخطل ـ فكان إذا لم يجدها اختلقها اختلاقاً ، وجعلها صوراً ساخرة بلغت من الإسفاف والبذاءة الحدود القصوى .

الهوامش

(١) لسان العرب ، مادة (لؤم) .

(٢) ينظر : العصبية القبلية ، احسان النص : ٥٠٥. وحسان بن ثابت ، حياته وشعره ، للمؤلف نفسه : ٢٠٦.

(٣) شرح ديوان الفرزدق ، إيليا حاوي : ٦٠١/١.

(٤) نفسه : ٣٤٠/٢.

(٥) نفسه : ١٧١/١.

(٦) نفسه : ٥٧٠/١.

(٧) نفسه : ٥٢٥/١.

(٨) نفسه : ٢٠/٢.

(٩) شرح ديوان الفرزدق : ٥٧٣/٢. العاني : الأسير

(١٠) نفسه : ٣٣٢/٢.

(١١) نقائض جرير والفرزدق : ١٥٤/١

(١٢) شرح ديوان الفرزدق : ٣٢٣/٢.

(١٣) نفسه : ٢٩٥/١.

(١٤) نفسه : ٢٤٦/٢.

(١٥) نفسه : ٦٣/١.

(١٦) نفسه : ٤٦٨/٢.

(١٧) نفسه : ١٧١/١.

(١٨) نفسه : ٢٤٧/٢.

(١٩) نفسه : ٣٢٩/٢

(٢٠) نفسه : ٥٧٢/١.

(٢١) نفسه : ١٤٢/١.

(٢٢) نفسه : ٣٢٥/٢.

(٢٣) ينظر : بلاغة البديع في شعر الفرزدق ، عبد الله عبد الرحمن علي الغويل ، (أطروحة دكتوراه) : ١٠٨.

(٢٤) ديوان الأخطل : ٢٦٦. ونسب أبو الفرج الأصبهاني هذا البيت ـ **خطأً** ـ إلى البعيث المجاشعي . ينظر : الأغاني : ٤٤/٧.

(٢٥) نقائض جرير والأخطل : ١٧١.

(٢٦) نفسه : ٢٤٢. دارم : جد الفرزدق . يربوع : جد جرير . الأعدال : جمع العديل ، وهو النظير أو المساوي .

(٢٧) نفسه : ١٥٠ . المعجل : الجنين الذي يأتي قبل أوان الولادة . ذو اللهاله : الهائم على وجهه في الصحراء .

(٢٨) ديوان الأخطل : ٢٠٠

(٢٩) ديوان جرير : ٨٥. وينظر : نقائض جرير والفرزدق : ٤٤٦/١.

(٣٠) شرح ديوان الفرزدق : ١٧١/١ . وينظر : الهجاء عند جرير والفرزدق ، خالد يوسف : ١١٩.

(٣١) نفسه : ٣٣٢/٢. المُربِّق : مَنْ يوثق الحمير بالأحبال .

(٣٢) نفسه : ٢١٣/١. المقدح : المغرفة . أغضى : أطبق . الشفر : هدب العين . اجتدح : خض الشراب . الغيل : السويق يُحمل في القدح ثم
يخلط بالماء .

(٣٣) نفسه : ٧٠/١.

(٣٤) نفسه : ٢٩٤/١. الجعل : بهيمة صغيرة ، وهنا الرجل القبيح الأسود . المحتد : الأصل .

(٣٥) نفسه : ١٢٧/٢.

(٣٦) نفسه : ١٢٧/٢.

(٣٧) نفسه : ٥٨٢/١. وبار : أرض واسعة ما بين الشحر إلى صنعاء اليمن . ينظر : معجم البلدان : ٣٥٦/٥.

(٣٨) نفسه : ٣٣٨/٢.

(٣٩) نفسه : ٣٤٩/٢. تصادي : تداري . غير مؤتل : غير متضجر ومتراجع .

(٤٠) نفسه : ٣٤٤/٢. الجحافل : جمع الجحفلة ، مشفر البعير . المجال : من جال تحرك في كل مكان .

(٤١) نفسه : ٦٤٣/٢. التربيق : إيثاقها بالحبل . الغايات : المآثر .

(٤٢) نفسه : ٦٠٤/١.

(٤٣) ديوان الأخطل : ٢٠٠. استجمع الوادي : لم يبق منه موضع إلاَّ سال . الأتي : السيل الذي يأتي من كلِّ مكان .

(٤٤) نفسه : ٢٨٤. البردة الحبقيَّة : الثوب البالي الملطخ بالدنس . الثلة : اللحم الفاسد . الربق : حبل يُشد في عنق البعير .

(٤٥) نفسه : ٢٠٠.

(٤٦) نفسه : ٢٤٢. البكور : أول الشراب أو التقدم .

(٤٧) شرح ديوان الفرزدق : ٥٧٩/١. المسبقين : الذين هزموا في السباق . الفعال : المكارم . الأسآر : البقية .

(٤٨) نفسه : ٣١٨/١. وينظر : تشكيل الصورة الشعرية عند الفرزدق ، هند سالم : ١٣٥. طهية : هي طهية بنت عبد شمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم ،
كانت عند مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد فولدت له أبا سود وعوفاً وحشيشاً ، فغلبت على بنيها فنسبوا إليها .

(٤٩) نفسه : ٥٥٤/٢.

(٥٠) نفسه : ٣٢١/٢.

(٥١) نفسه : ٣٤٦/٢.

(٥٢) نفسه : ١٥٤/١.

(٥٣) نفسه : ٣٤٤/٢.

(٥٤) ينظر : معجم الحكم والأمثال والأقوال الخالدة ، أمجد عبد : ٦٥. وللتوسع في معنى الجبن (لغةً واصطلاحاً) ، ينظر : القاموس المحيط ، للفيروز
آبادي : ١١٨٥. والتعريفات ، للجرجاني : ٧٣. وتهذيب الأخلاق ، للجاحظ : ٢٥.

(٥٥) سورة الأنفال ، آية : ٤٥.

(٥٦) صحيح سنن أبي داود ، محمد ناصر الدين الألباني : ٢٥١١.

(٥٧) شرح ديوان الفرزدق : ٥١٨/١.

(٥٨) نفسه : ٣٤٤/٢. الحطمية : الدرع . أفاخ : خرجت منه ريح كناية عن الجبن والخوف والهزيمة .

(٥٩) نفسه : ٣٤٤/٢.

(٦٠) نفسه : ٣٤٥/٢.

(٦١) ديوان الأخطل : ٣٥ . ذبب : دافع

(٦٢) شرح ديوان الفرزدق : ٥٧٢/٢. النقائم : المكافأة بالعقوبة ، ينظر: لسان العرب ، مادة : نقم .

(٦٣) نفسه : ١٣٣/١

(٦٤) نفسه : ٣٤٣/٢.

(٦٥) نفسه : ١٧١/١.

(٦٦) نفسه : ٥٧٤/١.

(٦٧) ديوان الأخطل : ٢٦٥. الحلوم : أصحاب العقول الراجحة . الخوار : الضعيف . السؤوم : الملول .

(٦٨) شرح ديوان الفرزدق : ١٦٢/٢

(٦٩) نفسه : ٢١٥/١. المشايح : المُعادي ، الكاره .

(٧٠) نفسه : ٣٤٨/١. الحفيظة : الحميَّة لحفظ العِرض .

(٧١) نقائض جرير والفرزدق : ١٥٤/١.

(٧٢) شرح ديوان الفرزدق : ٦٤٣/٢.

(٧٣) شرح نقائض جرير والفرزدق : ٩٤١/٣ . ذات الرقمتين : أتانه ، والرقمتان ما اكتنف دبر الحمار من جانبيه . تشنع : همَّ بأمرٍ شنيع قبيح . اكتفل الدابة

: ركب كفلها ، وهو مؤخرها . الكاذتان : أعلى الفخذين . ذو السحوج الموقَّع : يُريد آثار الدبر في ظهورها .

(٧٤) نقائض جرير والفرزدق : ٢٤١/١. تلهفُ : تصيح والهفاهُ حرجاً وتغيظاً عندما رأت زوجها ـ جريراً ـ ينزو على الأتان . مأسف : غير مأسوف عليه

إذاغلبتني حمارة .

(٧٥) شرح ديوان الفرزدق : ٣٢٦/٢ . الثنية : الأسنان الأربع التي في مقدم الفم . الوداق : طلب الفحل .

(٧٦) نفسه : ٣١٨/٢ . وينظر : التنمر في شعر الفرزدق ، وسن الحلو : ٩.

(٧٧) سورة العنكبوت ، آية : ٤١.

(٧٨) مجمع البيان في تفسير القرآن ، الطبرسي : ٢٧/٨.

(٧٩) شرح ديوان الفرزدق : ٣٢٨/٢. متبرنساً : البرنس : ثياب سوداء تلبسها الراهبات في الأديرة . الرسفان : احتمال القيود .

(*) نُريد بذلك بيت زهير في هجاء آل حِصْن : **وما أدري وسوف إخالُ أدري أقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ** يُنظر : شرح ديوانه : ٧٣.

(٨٠) شرح ديوان الفرزدق : ٤٤٢/٢. القمقم : السيد القيوم على الأشياء .

(٨١) نفسه : ٥٦٦/٢ . وينظر : اتجاهات الشعر في العصر الأموي ، د. صلاح الدين الهادي : ٢٧٠

(٨٢) نفسه : ٣٢٤/٢

(٨٣) نفسه : ٥٨٠/١. أوابدي : قصائدي الغرائب كأوابد الوحش ، الواحدة أبدة .

(٨٤) ينظر : تاريخ النقائض في الشعر العربي ، أحمد الشايب : ٢٣١. الفنون الأدبيَّة في العصر الأموي ، د. سجيع الجبيلي ود. قصي الحسين : ٣٦٩.

وراجع كذلك : الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام ، د. محمد محمد حسين : ١٦٧.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- اتجاهات الشعر في العصر الأموي ، د. صلاح الدين الهادي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٨٦م .
- الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني (ت : ٣٥٦هـ) ، تح : إحسان عباس وآخرون ، دار صادر بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٩م .
- تاريخ النقائض في الشعر العربي ، أحمد الشايب ، ط٣ ، مكتبة النهضة المصريَّة ، القاهرة ، ١٩٩٨م .
- التعريفات ، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني (ت : ٨١٦هـ) ، تح : محمد صديق المنشاوي ، دار الفضيلة للطباعة والنشر ، د.ت .
- تهذيب الأخلاق ، عمرو بن عثمان الجاحظ (ت : ٢٥٥هـ) ، قرأهُ وعلَّق عليه : ابراهيم بن محمد ، دار الصحابة للتراث ، طنطا ، ١٩٨٩م .
- حسان بن ثابت ، حياته وشعره ، إحسان النص ، دار الفكر ، ط٣ ، ١٩٨٥م .
- ديوان الأخطل ، تقديم وشرح : كارين صادر ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٩م .
- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، تحقيق : أحمد زكي العدوي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤م .
- شرح ديوان الفرزدق ، ضبط معانيه وشروحه : إيليا حاوي ، منشورات دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣م .

- شرح نقائض جرير والفرزدق ، أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، الإمارات ، ٢٠١١م .
- صحيح سنن أبي داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني ، تأليف : محمد ناصر الدين الألباني ، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع ، الكويت ، ٢٠٠٢م .
- العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، احسان النص ، دار الفكر ، ١٩٧٣م .
- الفنون الأدبيَّة في العصر الأموي ، د. سجيع الجبيلي ود. قصي الحسين ، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٥م .
- القاموس المحيط ، أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى (ت : ٨١٧ هـ) ، تح : مكتب تحقيق : مؤسسة الرسالة بإشراف : محمد نعيم العرقسُوسي ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط٨ ، ٢٠٠٥م.
- لسان العرب ، ابن منظور الأنصاري (ت : ٧١١ هـ) ، دار صادر، بيروت ، ط٣ ، د.ت.
- مجمع البيان في تفسير القرآن ، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت : ٥٤٨ هـ) ، مؤوسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٥م .
- معجم البلدان ، ياقوت بن عبد الله الحموي (ت : ٦٢٦هـ) ، دار صادر ، بيروت ، ط٢، ١٩٩٥م.
- معجم الحكم والأمثال والأقوال الخالدة ، أمجد عيد ، الأهليَّة للنشر والتوزيع ، يناير ، ٢٠٠٢م .
- نقائض جرير والأخطل ، أبو تمام الطائي ، شرح وتحقيق : د. محمد نبيل طريفي ، دار صادر ، بيروت ، ٢٠٠٢م .
- نقائض جرير والفرزدق ، أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري ، وضع حواشيه : خليل عمران المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٨م .
- الهجاء عند جرير والفرزدق ، خالد يوسف ، مؤسسة الرحاب الحديثة ، بيروت ، لبنان ، ٢٠١٠م .
- الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام ، د. محمد محمد حسين ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٩م .

لأطاريح والرسائل الجامعية :

- إقصاء الآخر في الشعر الأموي ، مريم لفته صافي ، رسالة ماجستير ، جامعة البصرة ، كلية الآداب ، ٢٠٢٢م . **إشراف : أ.د. أحمد حياوي السعد .**
- بلاغة البديع في شعر الفرزدق ، عبد الله عبد الرحمن علي الغويل ، أطروحة دكتوراه ، جامعة العلوم الإسلاميَّة العالميَّة ، الأردن ، ٢٠١٥م .
- تشكيل الصور الشعرية عند الفرزدق ، هند سالم أحمد ، رسالة ماجستير ، جامعة اليرموك ، الأردن ، كلية الآداب ، ٢٠١٠م .
- شعر الفرزدق ، دراسة نصيَّة ، محمد طالب غالب الأسدي ، أطروحة دكتوراه ، جامعة البصرة ، كلية الآداب ، ٢٠٠٩م . **إشراف : أ.د. أحمد حياوي السعد .**
- النقائض في الدرس النقدي العربي الحديث ، كامل عبد المحسن جاسم الحسن أطروحة دكتوراه ، جامعة البصرة ، كلية الآداب ، ٢٠١٦م . **إشراف : أ.د. أحمد حياوي السعد .**

البحوث والمقالات :

- التنمر في شعر الفرزدق ، وسن منصور الحلو ، حوليات آداب عين شمس ، مج / ٤٦ ، أكتوبر ، ٢٠١٨م .